

الأبعاد الدلالية لكثافة التراكم التناسي والإحالات في قصيدة ابن الونان الشمقمقية

د. زاهر محمد حنني

أستاذ النقد الأدبي الحديث المشارك/ جامعة القدس المفتوحة/ فلسطين

zhanani@qou.edu

ملخص:

يتناول هذا البحث (الأبعاد الدلالية لكثافة التراكم التناسي والإحالات في قصيدة ابن الونان الشمقمقية)، وقد جاء في مقدمة وأربعة أقسام، ودُيِّلَ بخاتمة بينت النتائج التي توصل إليها البحث. تناول القسم الأول منها مفهوم التراكم التناسي بالبناء على معطيات النقد الحديث، وكان القسم الثاني منها وقفة سريعة مع الشاعر والقصيدة، وجاء القسم الثالث ليتتبع دلالات بُعد الحوادث وأيام العرب، وعرض القسم الرابع التناص في بعد الأمثال الشعبية العربية وحكاياتها.

وأبرز ما جاء في الخاتمة من نتائج للبحث، بيان الإحالات وكثافة التراكم التناسي في القصيدة، وأن الشاعر أراد استعراض مهاراته وقدرته في التميُّز، وبيَّنَ البحثُ أن الشاعر يمتلك المعرفة في حوادث العرب وأنسابهم وأمثالهم، ويمتلك القدرة الفنية على التناص معها.

وقد استعان الباحث بمنهج النقد التطبيقي التحليلي سبيلا للوصول إلى غايته.

الكلمات مفتاحية: التناص، الإحالة، ابن الونان، الشمقمقية.

Semantic Dimensions of the Multitude of Accumulative Intertextuality and References in Ibn Alwanan's Poem "Ashamaqmaqiyah"

Dr. Zaher Mohammad Hanani

Associate Prof. of Modern Literary Criticism

Al-Quds Open University-Palestine

zhanani@qou.edu

Abstract:

This study titled "**Semantic Dimensions of the Multitude of Accumulative Intertextuality and References in Ibn Alwanan's poem "Ashamaqmaqiyah"**" is broken into an introduction, four parts and ended with a conclusion that clarified the result of the study. The first part included the concept of accumulative intertextuality based on the measurement of modern criticism, the second part concentrated on the poet and the poem while the third part tracked semantic dimension of the events and Arab history in the poem. The fourth part examined the dimension of intertextuality in some popular Arab proverbs and tales.

The major outcomes of the study came in the conclusion that pointed out the references and the multitude of accumulative intertextuality in the poem in which the poet wanted to show off his ability, moreover, the poet proved that he has a profound knowledge in the major events in the Arabs history, parentage and proverbs, in addition to his ability for having intertextuality with them. The researcher has utilized the analytical applied approach to achieve his aims.

Keywords: Intertextuality, References, Ibn Alwanan, Ashamaqmaqiyah.

مقدمة:

لم تحظ قصيدة ابن الونان الشمقمقية بما ينبغي أن تحظى به من مراجعات وقراءات وتحليل؛ لأنها معدودة في المنظومات التي يقلل النقاد شأنها، ولما عاينتها بعين المبحر في أبعادها التناسية، وجدتها تحمل دلالات عميقة في اتجاهات متعددة؛ أبرزها بعد الحوادث والأمثال الشعبية وحكايات العرب، بما فيها من تاريخ وأدب وأسطورة وغيرها. فعكفت على تتبع أبعاد التراكم التناسي والإحالات فيها وفق رؤية جديدة، تجاوزت فيها التقسيم الذي يعمد إليه الدارسون من تناص ديني وتاريخي وأدبي وأسطوري وشعبي.

مشكلة الدراسة وأهميتها: يعمل هذا البحث على بيان أهمية أرجوزة ابن الونان الشمقمقية، من حيث كونها لم تدرس من قبل دراسة فنية تتناول أبعادها الدلالية والتراكم التناسي والإحالات فيها.

أهداف الدراسة: يسعى هذا البحث لرصد دلالات أبعاد التراكم التناسي والإحالات في حمولة القصيدة العامة التي جعلتها في بعدي الحوادث وأيام العرب وحكاياتهم، والأمثال والحكم.

جاء البحث في أربعة أقسام، بين الأول منها مفهوم التراكم التناسي -كما يراه الباحث- بالبناء على معطيات النقد الحديث، وجاء الثاني منها ليقف وقفة سريعة مع الشاعر والقصيدة، وجاء الثالث منها يتتبع دلالات بعد الحوادث وأيام العرب وجاء القسم الرابع ليتناول التناص والإحالات في بعد الأمثال الشعبية العربية وحكاياتها. وبدأ البحث بمقدمة، وذيل بخاتمة بينت أبرز ما توصل إليه البحث من نتائج.

منهج البحث: اتخذ البحث منهج النقد التطبيقي التحليلي سبيلا للوصول إلى غايته؛ إذ يقف عند مواضع التناص والإحالات في القصيدة ويحللها؛ ليصل إلى نتائج من حيث وجود التراكم التناسي أو غير ذلك.

بين البحث في **نتائجه** كثافة التراكم التناسي والإحالات في القصيدة التي أشارت إلى عزم الشاعر على استعراض مهاراته وقدرته في التميز، وبين البحث أن الشاعر يمتلك المعرفة في حوادث العرب وأنسابهم وأمثالهم، ويمتلك القدرة الفنية على التناص معها في قصيدة هي مطولة شعرية خالدة. **ويوصي** الباحث بضرورة دراسة القصيدة من جوانب أخرى؛ نحوية وصرفية وبلاغية.

أولاً: التراكم التناسي

يشير مفهوم التراكم التناسي إلى كثافة الدلالات والأبعاد التي يحملها التناص بأنواعه، وهو مرتبط بالقدرة على إنتاجه وحفظه وتيسير سبل تناقله أو إيصال فكرته، الأمر الذي بات مع بعض النصوص الإبداعية قريباً من التعقيد، أو يستغل على مَنْ معرفته ودرائته في الحوادث وأخبارها محدودة، إذ كل حقبة من حقبة التاريخ لها معطياتها المعرفية، ونتائجها قد يختلف أو يتكامل مع نتاج المرحلة اللاحقة لها، والإحاطة الكاملة شبه مستحيلة، وتبرز بين أحداث الزمن مفاصل مهمة، بحسب قيمتها الدينية أو التاريخية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية أو غيرها، وقد تكون عنوان الحقبة كلها، فيشار إلى عصر الحروب الصليبية مثلاً بصلاح الدين الأيوبي، ويشار إلى غيرها بحادثة أو بمنجز حضاري أو بانتصار ما، فيستقر ذلك في المعرفة العامة. عنواناً لتلك المرحلة، وتبقى أحداث وحوادث أخرى أقل أهمية في العرف الشائع العام.

التراكم من ركم: " رَكَمَ الشيء إذا جمعه وألقى بعضه على بعض، ارتكَمَ الشيء وتَرَكَمَ اجتمع والرُكَّامُ: الرمل المُتَرَكَمُ والسحاب ونحوه" (الرازي، 1981: ركم) وبهذا المعنى جاء قوله تعالى: " لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" (الأنفال:37) أي عند جعل بعضه على بعض يتراكم، وفي اللسان عن ابن سيده: "الرَّكْمُ إلقاء بعض الشيء على بعض وتَنْضِيدُهُ، رَكَمَهُ يَرْكُمُهُ رَكْماً فَارْتَكَمَ وتَرَكَمَ" (ابن منظور، 1968: ركم)، ولم تختلف معاجم اللغة اللاحقة في شيء من هذا المعنى.

التناسي منسوبة إلى التناص، والنص من "نص الحديث إلى فلان: أي رفعه إليه..." (ابن منظور، 1968: نص) والنص: "صيغة الكلام الأصلية التي وردت من المؤلف" (مجمع اللغة العربية، القاهرة، 2014: نصص) هكذا يمكن حصر المعنى اللغوي للنص الذي بنيت عليه مفاهيم التناص، التي سارت في مسارب عديدة بين الغرب والعرب.

التناص هو كتابة نصٍّ على نص، جملة على أخرى، بيت شعر على بيت آخر، أو بيت شعر على حديث نبوي أو آية قرآنية، أو جملة نثرية على كلام مأثور. وتصوير التناص على أنه لوحة فسيفسائية إنما يشير إلى تداخل النصوص، وأول من قال به الناقدة البلغارية (جوليا كرسيفا) في أواخر ستينيات القرن الماضي تأثراً بأستاذها (ميخائيل باختين) بأنه التفاعل النصي في نص بعينه أو بتعبير آخر، نص امتصاص أو تشرب لنص آخر أو تحول عنه، وقد رأت أن مفهوم التناص، أو البنى التناسية تبدو في أربعة أشكال هي: - نص التقسيم التقليدي. - نص الشعر الغزلي. - النص الشفوي للمدينة. - خطاب الكرنفال. (كرستيفا، 1997: 26) وعليه فإن النص الأدبي ليس مقطوعاً لا أصول له، بل هو "يدخل في شجرة نسب عريقة وممتدة تماماً مثل الكائن الحي البشري، فهو لا يأن إلى فراغ كما أنه لا يفضي إلى فراغ، إنه نتاج أدبي لغوي لكل ما سبقه من مورث أدبي، وهو بذرة خصبة تؤول إلى نصوص تنتج عنه" (الغذامي، 2008: 111) ومهما يكن من أمر فإن التناص من المصطلحات الحديثة التي دخلت الأدب العربي بغض النظر عما إذا كانت له جذور في التراث العربي أم لا، وكلمة التناص لم تكن معروفة قديماً عند النقاد العرب، بمفهومها الحديث. فقد أشار فقيه اللغة العربية عبد القاهر الجرجاني إلى المعنى بالانتحال والسرقة والنسخ.

ويعرف التناص باللغة الإنجليزية " intertextuality " أي نص داخل آخر. أو بما يعرف في النقد بالتشابه بين نص وآخر أو بين عدة نصوص. أو بين وجود مشاركة بين نصين أو أكثر.

التراكم التناصي يعتمد اعتمادا مباشرا على حشد مجموعة من الإحالات المرجعية، أو الإشارة، أو الإغارة، أو الإحالة الفنية،... إلخ إلى حدث، أو مَثَلٍ، أو فكرة، أو سياق ما، رصده الشاعر بقصد الإحالة إليه في نصه الشعري؛ لينسجم مع مُؤدى الحالة الشعورية والفكرية للشاعر؛ لأن "تقنية (التراكم) من التقنيات المهمة في الكشف عن البواطن الشعورية التي تنطوي عليها الذات الشعورية من قضايا تمس الواقع والحياة التي تحيط بالشاعر وتشكل الأرضية الخفية لشعره، فلا قيمة للشعرية إن كانت تجريدية أو مزيفة لا تمس الواقع وتنقده وتؤسس عالمها الوجودي الخلاق" (شترتج، 2018، 208)، وسواء أقصد الشاعر هذا التراكم لغاية فنية أم شعورية أم أخلاقية، فإنها تؤدي دورا فنيا يقاس مقدار انسجامه مع بقية عناصر القصيدة، عندها يكون "التراكم هو القيمة البلاغية والمظهر الجمالي للخبرة التاريخية للمبدع" (السيد، 1996: 101) فالجانب الفني لا بد وأن ينسج مع الخبرة التاريخية للفنان المبدع، ويختلط فكر النقاد عند هذا الجانب، فمن يرى الأبعاد الجمالية للشعر في تراكميته ومن يرى أن الشعر "ليس بنية تراكمية.. الشعر ليس موجودا في اللغة، كما هو اللون مثلا أو العطر موجود في الورد. الشعر في الإنسان، والإنسان هو مالى اللغة بالشعر ومالى العالم. وفي العالم أشكال وجود بقدر ما فيه من أشكال الحساسية" (أدونيس، 1985: 110) ولا أجد فرقا كبيرا؛ فأدونيس يريد أن تكون القيمة الفنية للنص الشعري في المقام الأول، ويريد الشاعر ما يريده لنصه في المقام الذي يختاره.

أما الإحالة فهي من أحال، ومعناها " استعمال كلمة أو عبارة تشير إلى كلمة أخرى أو عبارة أخرى سابقة في النص أو المحادثة" (عمر، 2008: أحال) وفي البحث مثلا، تعني " تنبيه القارئ في مكان من كتاب أو مقالة بالرجوع إلى مكان آخر يعالج ما يتصل بالموضوع قيد الدرس، وذلك لربط نواحي الموضوع الواحد بعضها ببعض" (مجموعة، ب.ت: أحال) وقد نجد أن التناص إحالة غير صريحة إلى أمر أو حادثة أو شخص أو نص، أما الإحالة فتكون صريحة ومباشرة، ولهذا فإننا نستطيع القول أن ما جاء في الشمقمقية يقع بين التناص والإحالة. ولتعدد المذاهب في التناص ومفهومه واتجاهاته، قاربنا بينهما في هذا البحث.

ثانياً: الشاعر والقصيدة

في ظل ازدياد اهتمام الدارسين بالنص، وغلبته على اهتمامهم بالشاعر وحياته وبيئته الاجتماعية والثقافية، قلّت العناية بالظروف المحيطة بالنص والشاعر، ليكون الاهتمام بالدرجة الأولى بالنص، ونحن لا نذهب مع من ذهبوا إلى (قتل/موت المؤلف) إلا أننا نرى ضرورة البدء من النص، وبذل مزيد من الاهتمام بماهيته وأبعاده الفنية ودلالاته، لذا لا مزيد من الحسرة على عدم معرفة كثير من التفاصيل المتعلقة بصاحب الشمقمية. ويكفي أن نعرف أنه قدم عملاً إبداعياً متميزاً في كثير من جوانبه، ومن هذه الجوانب كثافة التراكم التناسلي في القصيدة، الأمر الذي نكتفي معه بتعريف يحفظ حق الشاعر في نصه وحق النص في شاعره.

الفقيه الأديب الشاعر أبو العباس أحمد بن محمد التواتي الحميري الفاسي، المعروف بابن الونان، والمكنى بابن أبي الشمقمق، جزائري الأصل، له نظم كثير فيه فخر وهجاء وإقذاع، وله علم واسع بأيام العرب وأنسابهم وسيرهم ومغازيهم -دلت عليه بوضوح هذه القصيدة- توفي في كناش بفاس في المغرب سنة (1187هـ- 1773م). (الحسيني، 1979: 5) كان والده نديم السلطان محمد بن عبد الله (المتوفى سنة 1204هـ) وهو الذي كناه بأبي الشمقمق تشبيهاً له بأبي الشمقمق الشاعر الكوفي، فاتصلت به هذه الكنية لا يدعى إلا بها، فلما تُوفي أراد ابنه أن يفد على السلطان فمنعه حُجاب القصر وحاشيته، ورَوَّأ أنه اتخذ راية وصعد نشزاً عالياً من الأرض وجلس ينتظر موكب السلطان ثم نادى بأعلى صوته: (يا سيدي سبط النبي أبو الشمقمق أباي). فعرفه وأمر به، فلما حضر أنشده قصيدة وقعت منه موقعا حسنا، فأجزل صلته ورفع منزلته وقربه إليه. (الحسيني، 1979: 5)

يروى أن لابن الونان شعرا كثيرا لم يصلنا أكثره، وربما يكفي أن نشير إلى أن هذه القصيدة التي جاءت على بحر الرجز وروي القاف في 275 بيتاً، كأنها ديوان شعر، فقد نظمها صاحبها ليستعرض بها مهارته في النظم ومعرفته الواسعة وإحاطته الكبيرة بأيام العرب وحوادثهم وأمثالهم وأنسابهم، ولتتقرب بها إلى السلطان المغربي محمد بن عبد الله. وجاءت القصيدة وفق تقسيم الشارح لها بحسب الأغراض الشعرية في ثمانية أقسام هي: ذكر رحيل الأحبة، والتغزل بصفات المحبوبة، والحماسة والفخر، ومخاطبة الحسود، والحكم والأمثال والوصايا، ومدح الشعر، ومدح السلطان، ومدح الأرجوزة (الحسيني، 1979: 9).

ومن المنصف للقصيدة وشاعرها، أن نذكر أن الحقبة التي نظمت فيها، كان الشعر العربي يعاني من الضعف والركاكة والانحطاط، لذا جاءت القصيدة فيها بعض هذه الملامح، إضافة إلى اشتغالها على ألفاظ وعبارات غريبة، وكلمات مهجورة، فكانت -كما وصفت- ديوان مخزون أدبه، وموسوعة علمه، وعنوان مقدرته اللغوية، وطولها شاهد على خاطر المتدفق وفكره الواسع وطول نفسه الذي امتد ليستوعب هذا كله، الأمر الذي جعل الشاعر في القصيدة يتحدى الشعراء أن يأتوا بمثلها. ولا أدل على أهميتها من كثرة إقبال الأدباء على شرحها.⁽¹⁾ والحق أنه من أراد أن يتجول في حديقة القصيدة فعليه أن يكون موسوعياً ملماً بالثقافة العربية؛

¹ - وأشهر هذه الشروح شرح عبد الله الجريري، وشرح الناصري في (زهرة الأفتان في حديقة ابن الونان)، وشرح الشمقمية لعبد الله كنون الحسيني، وشرح الشيخ العربي بن عبد القادر المشرفي في (زهرة الأفتان في حديقة ابن ونان)، وشرح محمد بن أحمد الراشدي، وشرح أبي راس العسكري، وغيرها.

لأنها تحيل على زخم هائل (تناص تراكمي) من التراث. ومما يتعلق بوصف الصورة الفنية وهي ركن أساس في الشعر؛ لأن "الارتباط الوثيق بين الصور والعواطف والمشاعر المتعلقة بها يهيئ تخيلات وتصورات مختلفة" (أبو دبيل، 2021: 17) وقد جاءت الصور الفنية عن ابن الونان في هذه القصيدة مستمدة من بيئته وتكاد تكون تقليدية في كثير من المواضيع.

ثالثاً: في حوادث العرب وأيامهم

أيام العرب وحوادثهم هي وقائعهم التي يعتدون بذكرها لما لها من آثار في نفوسهم، أو لما تحتويه من مكارم وأخلاق وقيم، أو بما فيها من انتصارات وهزائم، وقد ظلت أيام العرب على ألسنتهم في الشعر والنثر، ووضعت فيها الكتب والموسوعات والمصنفات الكثيرة التي شرحت تفاصيلها ورموزها وأبعادها⁽¹⁾، وظلت في الشعر تحتل مكانة متميزة؛ لتعالقها والشعر في نفوس العرب. ولا نقصد أيام العرب قبل الإسلام، وإنما ما تمتد إليه من أيامهم في ظل الإسلام.

عمد ابن الونان إلى استعراض معرفته بأيام العرب وحوادثهم في مواضع كثيرة جدا في القصيدة، ولا يكفي هذا البحث لاستعراضها جميعاً؛ لكثرتها، وسنعرض بعضاً منها أمثلة دالة. من ذلك قوله (الجنكي، 1999: 57):

فإنني أشجع من ربيعة حامي الظعينة لدى وقت اللقي

وقصة ربيعة حامي الظعينة⁽²⁾ باتت مشهورة عند العرب؛ لما فيها من أبعاد دلالية خاصة، ولارتباطها بأيام العرب المشهودة، وأقول مشهودة لأن فيها كثيراً مما اختلف الرواة في تفاصيلها، بل ليس من المعقول أن تكون أخبار الرواة التي وصلتنا كلها صحيحة؛ لاختلاف الرواة، لهذا فإن البعد الدلالي لقصة ربيعة حامي الظعينة، يكمن في تركيز قيم الشجاعة والبطولة عند العرب، فإبراز هذه القيم المعنوية يعني أن العرب لم يكن همهم الأول القتل من أجل القتل كما تنتقل لنا روايات بعض الرواة.

¹ - ينظر، على سبيل المثال كتاب (أيام العرب في الجاهلية- لمحمد أحمد جاد المولى بك وعلي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة عيسى البابي الحلبي، 1942) وكتاب (الكامل في التاريخ - لابن الأثير) وكتاب (تاريخ ابن خلدون) وغيرها كثير.

² - "هو ربيعة بن مكرم الكناني، وكان من خبره: أن نبیثة بن حبيب السلمي خرج غازياً فلقى طعناً من كنانة بالكديد، فأراد أن يحوثها، فمانعه ربيعة بن مكرم في فوارس وكان غلاماً له ذؤابة، فشد عليه نبیثة فطعنه، فأتى ربيعة أمه فعصبته واستسقاها، فقالت: اذهب فقاتل القوم فإن الماء أمامك، فرجع على القوم، فكشفهم ورجع إلى الطعن وقال: إني لماتت وسأقف بفرسي على العقبة، وأتكني على رمحي، فإن فاضت نفسي كان الرمح عمادي، فالنجاه النجاه، فوقف ساعة حتى نزفه الدم، ففاظ أي مات، وطال وقوفه فاشتبهوا في أمره، فرموا فرسه فقمص وخر ربيعة لوجهه، فطلبوا الطعن فلم يلحقوه. قال أبو عمرو بن العلاء: ما نعلم فتيلاً حمى طعنان غير ربيعة بن مكرم الحسيني، عبد الله كنون: شرح الشمقمية، سابق، ص33.

ويقول فيها أيضا(الجنكي، 1999: 71 وما بعدها):

سَيْفٌ كَصَمَّامَةٍ عَمْرُو بَاتِرٍ لَا يَتَّقَى بَيْلَبٍ وَدَرَقٍ
وَبَيْنَ جَنْبَيْ فُوَادٍ ابْنِ أَبِي صُفْرَةَ قَاطِعِ قَرَا ابْنِ الْأَزْرَقِ
وَفَرَسٍ كَلَّاحِقٍ أَوْ دَاحِسٍ يَوْمَ الرَّهَانِ شَأْوُهُ لَمْ يُلْحَقِ

وتأويل ذكر صمصامة عمرو⁽¹⁾، وابن أبي صفرة⁽²⁾، وابن الأزرق⁽³⁾، ولاحق⁽⁴⁾، وداحس⁽⁵⁾، في الأبيات على أنها تناص من باب ما تحيل عليه هذه الأسماء من مواقف مرتبطة بسير هؤلاء في أيام العرب، الأمر الذي يؤكد اهتمام الشاعر بالجوانب الإيجابية لتلك الأيام لتكون إضاءات، وهذا الحشد الاستعراضي يمثل الكثافة، فهي تحيل على خمس قصص طويلة، أراد أن ينقلنا بها من جو الفخر بالشجاعة التي يمثلها الشاعر، إلى أشهر قصص الشجاعة وما يمثلها في التاريخ العربي وأيام العرب؛ فمصمصامة عمرو من أشهر السيوف وأشدها في التاريخ، وفواد المهلب بن أبي صفرة من أشهر القلوب وأشجعها، وابن الأزرق من أشد مواقف التحدي، ولاحق وداحس فرسان لكل منهما دوره في أيام العرب.

ومن ذلك أيضا قوله(الجنكي، 1999: 86):

فَإِنْ تَكُ الزَّبَا دَخَلَتْ قَصْرَهَا وَكَقَصِيرٍ سُقَّتْهَا لِلنَّفَقِ

يحيل هذا البيت إلى شخصيتين، ويتناص معهما، هما شخصية الزبَاء وشخصية قصير⁽⁶⁾، وقصة الحرب التي دارت بينهما على ما فيها من تناقضات واختلاف في الرواية والتفاصيل، إلا أنها من الأحداث المشهودة في تاريخ العرب، وهي مشهورة بدهاء وحنكة الزبَاء والتخطيط للثأر لأبيها، وعمرو بن عدي، ودهاء قصير وغدره، بعدما عرف أسرار قصرها، ونهايتها بتناولها السم من خاتمها عندما أدركت حثفها على يد عمرو،

وقولها آنذاك الذي راح مثلا: (بيدي لا بيد عمرو). ودلالة تناص الشاعر مع القصة بهذا التكثيف ربط ذهن المتلقي بعناصر تاريخية لها أبعادها المعنوية؛ فالدهاء والحكمة والتخطيط والحنكة والشجاعة من جانب، والغدر والخيانة والثأر من جانب آخر.

1 - الصمصامة: سيف عمرو بن معديكرب الزبيدي، وهو من سيوف العرب المشهورة، ومرتببط بكثير من أيام العرب وأحداثهم.

2 - المهلب بن أبي صفرة القائد الأمير في أيام بني أمية.

3 - نافع بن الأزرق الخارجي، انتصر عليه المهلب بعد صراع طويل.

4 - للاحق: فرس لمعاوية بن أبي سفيان (الحسيني: شرح الشمقمقية، ص46). وقيل لبني غني بن أعصر (ينظر: الجنكي: قطوف الريحان، ص80).

5 - داحس: فرس لقيس بن زهير العبيسي، وقد كانت سببا في الحرب بين عيس وذبيان التي يقال استمرت أربعين سنة.

6 - ينظر قصة الزبَاء بنت عمرو بن الطرب وعمرو بن عدي وقصير بن سعد بن لخم في: ابن الأثير، علي بن محمد: الكامل في التاريخ، بيت الأفكار الدولية، 2009، ص313 وما بعدها.

وبعد أن يمر على قصص من هذا النوع من أيام العرب كقصة كليب وجساس⁽¹⁾ وحصن السموأل بن عادي (الأبلق الفرد) وقصر النعمان ملك الحيرة المشهور (الخورنق) يحشد تناصا مباشرا مع عدد من الأيام المشهودة بعد الإسلام لأجداده مفتخرا بانتسابه إليهم، فيقول(الجنكي):

سَلِ ابْنَ خَلْدُونَ عَلَيْنَا فَلْنَا بِيَمِينِ مَا تَرَّ لَمْ تَمَحَقِ
وَسَلِّ سُلَيْمَانَ الْكَلَاعِيَّ كَمْ لَنَا مِنْ خَبَرٍ بِخَيْبِرٍ وَالْخَنْدِقِ
وَيَوْمَ بَدْرٍ وَحُنَيْنٍ وَتَبُوكِ وَالسَّوَيْقِ وَبَنِي الْمُصْطَلِقِ

فيأتي في بداية الحديث بشاهدين من أشهر المؤرخين في التاريخ، وهما ابن خلدون، وسليمان بن موسى الكلاعي؛ ليشهدا له ولتاريخ أجداده في مواقف البطولة، وذكر منها خيبر والخندق وبدر وحنين وتبوك والسويق وبني المصطلق، وكلها من غزوات النبي -صلى الله عليه وسلم- ودلالة الإحالة إليها من باب الفخر بالنفس وبالأصل والنسب. وهذا التراكم يتطلب معرفة وإحاطة بأنسب العرب. ويقول(الجنكي): (128):

وَأَفْعَلُ بِمَنْ تَرْتَابُ مِنْهُ مِثْلَ فِعْلِ لِ الْمُتَمَلِّسِ اللَّيْبِ الْحَدِيقِ
أَلْقَى الصَّحِيفَةَ بِنَهْرِ حَيْرَةَ وَقَالَ يَا ابْنَ هِنْدٍ ارْعُدْ وَابْرُقِ

في الأبيات تناص يحيل إلى قصة طرفة بن العبد الشاعر وخاله المتلمس الضبعي، وملك الحيرة عمرو بن هند⁽²⁾ وقد استعار الشاعر هذه الحادثة التي ظلت خالدة نموذجا للحنر والأخذ بالحزم، ودلالة هذا التناص التفاعل مع أحداث الماضي من أجل إحداث تغيير في الحاضر. ويتناص الشاعر أيضا مع حادثة تضحية السموأل بن عادي في الوفاء بأداء الأمانة إلى ورثة امرئ القيس، بقوله(الجنكي): (133):

وَلَا تَعْدُ بُوَعْدِ عُرْقُوبٍ أَحَا وَفِيهِ وَفَا سَمَوْعِلٍ بِالْأَبْلُقِ
شَحَّ بِأَدْرُعِ امْرِئِ الْقَيْسِ وَقَدْ تَرَكَ نَجْلَهُ عَسِيلَ الْعَلْقِ

¹ - الإحالة هنا مع ما فيها من استعارة لطيفة هي على حرب البسوس ورموزها ومنهم جساس وكليب. وحرب البسوس من أشهر أيام العرب في الجاهلية.

² - الحسيني: شرح الشمقمقية، ص65-66. وفيه: "وكان المتلمس وفد هو وابن أخته طرفة بن العبد على الملك عمرو بن هند صاحب الحيرة، فبقيا مدة لا يصلان إليه، وكأنه استخف بهما، فهجاه طرفة فبلغه ذلك فهم بقتله لكنه خاف هجاء المتلمس أيضا، فقال لهما: لعلما اشتقتما لأهلكما؟ قالوا: نعم، فكتب لهما صحيفتين، وقال: اذهبا إلى عاملي بالبحرين فقد أمرته أن يصلكما، وكان في الصحيفتين الأمر بقتلهما، فأما طرفة فمضى إلى العامل فقتله، وأما المتلمس فإنه اشتبه بأمر الصحيفة فأعطاهما إلى صبي فقرأها له ففجأ بنفسه.

ودلالة هذا التناص في باب النصيحة لمن أراد أن تكون قِيمُهُ رفيعة سامية، تعميق الأواصر مع هذه القيم من التاريخ. وفي رؤية فنية مغايرة يقول الشاعر(الجنكي: 150):

وَحْدُ بَثَّارِكَ وَكُنْ كَمَنْ أَتَى بِالْجَيْشِ خَلْفَ شَجَرٍ ذِي وَرَقٍ

التناص في قوله: " كمن أتى بالجيش خلف شجر من ورق" إذ يتناص مع قصة رياح بن مرة من قبيلة طسم الذي عاد ليأخذ بالثأر من قبيلة جديس، ونصح جماعته باقتلاع أشجار وجعلها أمامهم والسير خلفها، لأن أخته زرقاء اليمامة التي كانت متزوجة في جديس ترى على مسير ثلاثة أيام، وفعلوا، ورأت زرقاء اليمامة ذلك، وأخبرت قومها، إلا أنهم لم يصدقوها، وكان ذلك سببا في إبادة القوم وصلب زرقاء اليمامة (مع اختلاف الروايات)⁽¹⁾، ودلالة هذا التناص ضرورة اتخاذ الحذر ممن يجب الحذر منهم، والحكمة في تدبير الأمور، وهو تناص مغلف بأبعاد فنية، تستوجب المعرفة المسبقة بالقصة، لذا أرفدها من باب التكتيف بالإحالة على قصة أخرى، هي قصة بيهس وفرصته في أخذ الثأر(الجنكي: 154)، بقوله(الجنكي: 153):

وَأَنْتَهَزَ الْفُرْصَةَ مِثْلَ بِيَهَسٍ وَبِالْمَدَى لَحْمَ الْعُدَاةِ شَرَّقٍ

بل ولكي يتواصل أكثر مع دلالات الفكرة أشار إلى قصة وليمة الأشعث بن قيس حينما ذبح كل ما مر به في المدينة من الشياه والإبل بعدما زوجه أبو بكر -رضي الله عنه- من أخته. فقال الشاعر(الجنكي: 155):

وَكَأَنَّ قَيْسٍ بِهِمْ كُنْ مَوْلِمًا وَوَلِيْمَةً شَهِيْرَةً كَالْفَلَقِ

يَوْمَ مَلَكَهٖ بِأَمِّ فَرْوَةٍ عَرَقَبَ كُلَّ ذَاتِ أَرْبَعِ لَقِي

ويشكل الرابط الدلالي بين هذه الحوادث في أيام العرب، ما أراده الشاعر من تكتيف الصورة في ذهن المتلقي، فالحوادث تُذَكَّرُ أو يُذَكَّرُ بها من أجل امتصاص العبرة منها، والاستفادة منها، والشاعر هنا يمثل دور الأستاذ الناصح المرشد الدال على قيم الأصالة من خلال تتبع القيم الرفيعة السامية في أيام العرب وحوادثهم، وتجنب العادات السلبية.

وفي موضع آخر من القصيدة يتناص الشاعر مع فكرة وردت عند امرئ القيس مرتبطة بالنزال والصراع والحروب (المادية أو المعنوية) ولهذا أوردها هنا، يقول ابن الونان(الجنكي: 159):

وَلَا تُحَارِبْ سَاقِطَ الْقَدْرِ فَكَمْ مِنْ شِهَةِ قَدْ غُلِبَتْ بِبَيْدِقٍ

¹ - وردت القصة في (العقد الفريد، ج3، ص 71) لابن عبد ربه، حيث يذكر أن الزرقاء من بني نَمِير، وفي (خزانة الأدب، ج 10، ص 263) للبيدادي- الشاهد 845، وفي (مجمع الأمثال- المثل 574) للميداني، ويذكر أن "اسمها- اليمامة، وبها سمي البلد، وذكر الجاحظ أنها كانت من بنات لقمان بن عاد، وأن اسمها عنز، وكانت هي زرقاء".

وهو في قوله (ساقط القدر) يتناص مع امرئ القيس في قوله (امرؤ القيس، 1984: 44):

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف، ولم يغلبك مثل مغلب

فالفكرة التي أخذها ابن الونان وصاغها بطريقته هي نفسها التي عبر عنها امرؤ القيس؛ إذ ساقط القدر هو نفسه الضعيف الذي إذا غلبك وافتخر بتغلبه عليك، يكون قد ألحق بك عارا كبيرا، وإذا هزمته لا يكون لك تميز. مع الأخذ بالاعتبار أن الشاعرين أورد كل منهما المعنى في سياق مختلف عن الآخر.

ثم يذهب الشاعر إلى تكثيف إحالاته وتناصه مع كثير من أيام العرب وحوادثهم الأخرى؛ فيذكر سبأ وقصتها، وغار ثور الذي مكث فيه النبي ﷺ - مع صاحبه أبي بكر رضي الله عنه - ثلاثا لدى هجرتهم إلى المدينة، وكيف كان الفضل لخيوط العنكبوت الواهية وليس للدروع القوية، وقصة حاجب بن زرارة حين رهن قوسه عند كسرى، وأحال الشاعر على قصص رماة الحدق، وهي في غير رواية، كذلك أحال على قصة ضابئ بن الحرث الذي استعار كلب صيد من بعض بني حنظلة وقيل غيرهم، وأبى أن يرده فأخذه منه عنوة، فهجاهم، ومقتل ابنه (عمير) الذي سعى في الثأر بعده. وذكره كذلك لغزوة مؤتة وأبطالها من القادة المسلمين وفي مقدمتهم جعفر الطيار الذي قطعت يده فاحتضن الراية بعضديه بطولته وفداء حتى استشهد. كما يذكر قصة امرأة عمورية الهاشمية التي استنجدت بالمعتمم الذي هب لنجدتها وفتح عمورية وحررها. كما أحال على قصة غزوة الأرك وقائدها (المنصور) يعقوب بن يوسف (أبو يوسف) حيث ثار على استفزاز الإسبان وقتلهم وانتصر عليهم. كما ذكر الخنساء وتناص مع بكائها. ومع بكاء فارعة وخندف وخرنق (أخت طرفة بن العبد) ولكل منها قصة يحال عليها.

وكقصة بكاء مُتَمِّم بن نُؤَيْرَةَ على أخيه مالك. ثم عمد الشاعر عند حديثه عن الشعر وأهميته، وما أوصى به النبي ﷺ - منه، وما كان منه في أيام العرب وحوادثهم المتصلة به، ومنها خلع بردة النبي لكعب بن زهير بعد مدحه، ودلالة هذا الثواب، وأحال الشاعر على كثير من القصص والأيام والحوادث المتصلة بتأثير الشعر في حياة العرب، ومنها المعلقة. ثم ذهب الشاعر إلى ذكر بعض القيم السامية في الكرم مثلا، وأحال على بعض قصص القيم تناسا لأنه لم يذكر تلك القصص وإنما أحال عليها؛ كقصة كرم كعب بن مامة الإيادي، وأوس بن حارثة وحاتم الطائي، وعبد الله بن جدعان، ومعن بن زائدة، وغيرهم.

وهكذا تتبين لنا كثافة التناص والإحالات في هذه القصيدة التي تحتاج في تتبعها إلى عارف ملم بأيام العرب وأحداثهم وصراعاتهم ورموزهم وما يُفَدَّم من أمورهم ويُفَضَّل، وما يؤخر منها ويُبَدِّد.

رابعاً: في الأمثال والحكم

لا يوجد في القصيدة تراكم وتكثيف كذاك المتعلق بالتناسخ مع الأمثال والحكم والإحالة عليها، ومن هذه الأمثال والحكم ما هو مشهور يسهل التواصل معه، ومنها ما هو بعيد يحتاج إلى معرفة وكد ذهن، والعرب كثيراً ما يرددون مثلاً دون معرفة بأصل المثل وحكايته، وكثير من الأمثال تروى لها غير حكاية، ومنها ما لم تعرف مناسبتة. وقد قيل إن المثل "ظاهرة جاهلية إسلامية فهي حكمة العرب، وبها كانوا يزينون كلامهم وألفاظهم" (سلامة، 2020: 11) وحشد الإحالات على الحكم والأمثال في القصيدة له دلالاته الفنية والمعنوية، سنحاول الوقوف عند نماذج منها؛ لرصده وتعرفه وتحليل دلالاته وأبعاده.

أول ما يطالعنا من ذلك قوله (الحسيني، 1979: 15):

مَجَاهِلٌ تَحَارُّ فِيهِنَّ الْقَطَا لَا دِمْنَةَ لَا رَسْمَ دَارٍ قَدْ بَقِيَ

والمثل في قوله: (تحار فيهن القطا) إذ يضرب المثل بالقطا في قدرتها على التعرف على أي موضع تريده، وخصوصاً الموضع الذي تضع فيه بيضها، وأراد الشاعر استبعاد الأمر، ومن الأمثال المرتبطة بالقطا أيضاً قولهم: (ليس قطاً مثل قُطِيٍّ) أي ليس الأكبر كالأصغر (الجنكي: 13) ويضرب بها المثل أيضاً في دقة مشيتها، كما ورد في قول هند بنت عتبة يوم أحد: (نحن بنات طارق - نمشي على النمارق - مشي القطا النواتق) (الجنكي: 13)، وليس هذا ما أراده الشاعر، بل نجده يتناسخ أكثر مع قول الحريري في مقامته الشعرية: "وَجُبْتُ فِي سِيرِي وَعُورَا لَمْ تَدْمَثْهَا الْخَطِي، وَلَا اهْتَدَتْ إِلَيْهَا الْقَطَا" (الحريري، 1978: 179). وللمقامات أهمية كبرى في تاريخ الأدب العربي ذلك أنها أدخلت إلى "الأدب شكلاً جديداً استطاع أن يغطي كثيراً من جوانب القصور التي نشأت عن عدم اكتمال الأنواع والأجناس الأدبية في المأثور من التراث" (بازهير، 2020: 7)

وبعد أن استعرض قائمة طويلة من أسماء الحيوانات التي يضرب بها المثل، قال:

كَأَنَّمَا رَقْرَاقُهُ بَحْرٌ طَمًا وَالنُّوقُ أَمْوَاجٌ عَلَيْهِ تَرْتَقِي

وهنا يتناسخ الشاعر مع المثل: (أرق من رقرق السراب) ويضرب لبيان وجه من وجوه الحركة مع النقاء والصفاء. ثم يتناسخ مجدداً في قوله (الحسيني: 23):

فَسَوْفَ تَعْرُوكَ عَلَى إِتْلَافِهَا نَدَامَةُ الْكُسْعِيِّ وَالْفَرْزُدَقِ

يضرب المثل بندامة الكسعي وندامة الفرزدق؛ فأولهما الكسعي الذي يضرب به المثل هو محارب بن قيس، الذي جدَّ في صناعة قوس وسهام، وذات ليلة كان يضرب السهام وتصيب ويحسبها لا تصيب، حتى أتمها جميعاً، واعتقد أنه لم يصب شيئاً، فكسر قوسه ونام، ولما أفاق في الصباح وجد أن سهامه كلها أصابت حُمُرَ الوحش التي ضربها، فندم على كسر القوس.

وأما الثاني فهو همام بن غالب بن صعصعة الذي جد في طلب ابنة عمه نوار حتى تزوجها، ولكنه طلقها وندم على ذلك ندماً شديداً، فقال: "ندمتُ ندامةً الكسعيِّ لَمَّا - غدثُ مني مطلقاً نوارُ" (الفرزدق، 1987: 257). ودلالة كثافة هذا التناسخ مع قصتين لمثلين تتضح في ما أعقبهما بقوله (الحسيني: 24):

وَكُنْتُ قَدْ عَوَّضْتُ عَنْ أَخْفَافِهَا خُفِّي حَنِينٍ ظَافِراً بِالْآنُقِ

وهنا يتناسخ مع المثل (عاد بخفي حنين)⁽¹⁾ ودلالته الفنية ما يضرب به المثل، وهو عودة الإنسان خائباً دون تحقيق ما يصبو إليه. ويخرج الناظم من هذا المثل إلى قصة ابن ظالم التي سبقت الإشارة إليها، إلى مثل آخر بقوله (الحسيني: 25):

رَفُفًا بِهَا قَدْ بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَاً وَاتَّسَعَ الْخَرَقُ عَلَى الْمُرْتَقِ

وهو قولهم (بلغ السيل الزبي)⁽²⁾ ودلالة ضرب هذا المثل لما جاوز الحد، وللأمر إذا بلغ غايته في الهول، ومن كثافة التناسخ الإحالة على مثل آخر في البيت نفسه، وهو قولهم: (اتسع الخرق على المرتق) ويضرب في الأحوال التي يفسد فيها أمرٌ من أمور الناس، بحيث يخرج هذا الأمر عن سيطرة أولي الأمر والنفوذ، لدرجة لا يمكن تداركها، أو إذا استشرى الفساد في أحوال الناس وفات الوقت لتدارك الأمر.

ولم يطل الأمر كثيراً حتى عاد للتناسخ مع أمثال العرب، فأحال إلى حلم أحنف والمنقري، بقوله (الحسيني: 27):

لَوْ لَمْ يَكُنْ بِحُبِّ حِلْمِ أَحْنَفٍ وَالْمُنْقَرِيِّ قَلْبِي ذَا تَعَلَّقُ

¹ - وقصته أن رجلاً اسكافاً يقال له حنين، أتاه أعرابي وسأومه في خوف، واختلفاً، فأراد حنين أن يكيد الأعرابي، فأخذ الخف وطرح شفاً منه على طريق الأعرابي، ثم ألقى الآخر على مسافة منه، وكمن بينهما كي لا يراه، فمر الأعرابي بالخف الأول فقال: ما أشبهه بخف حنين، فما مضى حتى وجد الآخر، فعزم على أخذ الاثنين، وعقل ناقته وأخذه ومضى في طلب الآخر، فخرج حنين من مكانه وأخذ الناقة بحمولتها، فلما عاد الأعرابي إلى قومه وقص عليهم ما حدث، قالوا: عاد بخفي حنين. ينظر: الخراشي، سليمان بن صالح: المنتقى من أمثال العرب وقصصهم، در القاسم، الرياض، 2007، ص83.

² - الزبي جمع زبية، وهي حفرة تحفر للأسد إذا أرادوا صيده، وأصلها الرابية لا يعلوها الماء، فإذا بلغها السيل كان جارفاً. ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (زبي).

والأحنف هو ابن قيس التميمي، والمنقري قيس بن عاصم وكلاهما اشتهر بالحلم ومكارم الأخلاق، وقد قيل للأحنف: مَمَّنْ تَعَلَّمْتَ الْحِلْمَ؟ قال: مِنْ قَيْسِ بْنِ عَاصِمِ الْمَنْقَرِيِّ، رَأَيْتُهُ قَاعِدًا بَفَنَاءِ دَارِهِ، مُحْتَبِيًّا بِحِمَائِلِ سَيْفِهِ، يُحَدِّثُ قَوْمَهُ، حَتَّى أَتِي بِرَجُلٍ مَكْتُوفٍ، وَرَجُلٍ مَقْتُولٍ، فَقِيلَ لَهُ: هَذَا ابْنُ أُخِيكَ قَتَلَ ابْنَكَ، فَوَاللَّهِ مَا حَلَّ حُبُوتَهُ، وَلَا قَطَعَ كَلَامَهُ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى ابْنِ أُخِيهِ، وَقَالَ: يَا ابْنَ أُخِي، أَسَأْتَ إِلَى رَجْمِكَ، وَرَمَيْتَ نَفْسَكَ بِسَهْمِكَ، وَقَتَلْتَ ابْنَ عَمِّكَ، ثُمَّ قَالَ لِابْنِهِ لَهُ آخِرٌ: فَمَنْ يَا بَنِي، فَحَلَّ كِتَافَ ابْنِ عَمِّكَ، وَوَارَ أَخَاكَ، وَسُقِيَ إِلَى أُمِّهِ مَائَةٌ نَاقَةَ دِيَةِ ابْنِهَا، فَإِنِهَا غَرِيبَةٌ. (الحسيني: 28) وبعد، ألا يستحق أن يضرب المثل بحلم هؤلاء! بلى، وهذا ما دفع الشاعر ليتناص في موضع يستوجب الحلم مع من يضرب بهم المثل في الحلم. ويكتف التناص مع أمثال عربية أخرى في البيت اللاحق مباشرة؛ ليدعونا إلى التفقه في أبعادها الفنية والأسلوبية التي فاقت التوقعات، فيقول (الحسيني: 28):

فَسُقِ فَلَ نَعِمَ عَوْفُكَ وَلَا أَمِنَ حَوْفُكَ وَلَا تَدْرُنْفِقِ

(لا نَعِمَ عَوْفُكَ) و(لا أَمِنَ حَوْفُكَ) مثلان يضربان للدعاء على الشخص، والأصل أن يُهنأ المتزوج بالقول له (نَعِمَ عَوْفُكَ)، وفي نفيها كما وردت في المقامة التبريزية، أي أن الشاعر أحال على أصل المثل وعلى ما شاع من قول القاضي في المقامة التبريزية: "تَبَا لَكَ! أَتَبَدَّرُ فِي السَّبَّاحِ. وَتَسْتَقْرُحُ حَيْثُ لَا إِفْرَاحُ؟ اعْزُبْ عَنِي لَا نَعِمَ عَوْفُكَ. وَلَا أَمِنَ حَوْفُكَ!" (الحريري: 419) وما زال الحديث في القصيدة عن علاقة العرب بالإبل وأهميتها في حياتهم، وكيف ينبغي أن تُعامل، وانعكاس تلك العلاقة على علاقات الناس بعضهم ببعض. من ذلك ذكره لربيعة حامي الطعينة الذي سبق ذكره، والإشارة إلى حوادث راح يضرب بها المثل كلاحق وداحس وابن أبي صفرة وابن الأزرق، وغيرها مما تمت الإشارة إليه سابقا، وكل ذلك في معرض غزله في القصيدة، إلى أن يقول (الحسيني: 46):

تَفْدَحُ نِيرَانَ الْحَبَابِ حَوَا فِرُهُ عِنْدَ حَبَبٍ وَطَلَّقِ

الحباب: ذبابة تطير بالليل ويُرى في طرف جناحها شعاع كالسراج، ومنه قيل للنار الضعيفة نار الحباب، فيقال: أخلف من نار الحباب، وأكذب من نار الحباب (مثلان) وأراد الشاعر النار التي توربها الخيل بسنابكها من الحجارة عند عدوها.

وهكذا يستمر الشاعر في تناصه وإحالاته على الأمثال بكثافة لافتة، من ذلك مروره على ذكر (خاصي الأسد) وما ينسب إلى أبي بكر أو إلى الرسول ﷺ - من قوله: (إن البلاء موكل بالمنطق) وراح القول حكمة ومثلا. ويشير إلى أن الرجل قد يتكلم بالكلمة فيصيبه بلاء، وفق ما نطق وتكلم به. وراح الشاعر يستعرض قائمة طويلة في معرض النصح والإرشاد والحكمة، والرد على من يقلل من شأنه أو من شأن الآخرين. وذكر (سهم النميري) الذي يضرب به المثل في المبالغة في الكذب. وذكر (صحيفة المتلمس) التي ورد ذكرها أنفا والتي يضرب بها المثل أيضا. إلى أن يقول في وعد عرقوب ووفاء السمؤال (الحسيني: 66):

وَلَا تَعْدُ بُوَعْدِ عَرْقُوبٍ أَخَا وَفِيهِ وَفَا سَمَوْعِلٍ بِالْأَبْلَقِ

وعد عرقوب مما يضرب به المثل في الإخلاف بالوعد¹) ويضرب المثل بالسموأل في الوفاء بالوعد، وقد أشرنا إليه آنفاً، وفي هذا التقابل تضاد في المعنى، يشكل حالة من حالات التكتيف الذي أراده الشاعر، وهذه المرة بين الشيء ونقيضه. ودلالة هذا أن تتباين الفكرتان فتتضح كلاهما؛ فبضدها تتمايز الأشياء. وأردف هذه الحالات بأمثلة للجليل الحسن (كأبي دؤاد) والجار الحسن (كابن شور) اللذين يضرب بهما المثل أيضاً في حسن المجالسة وحسن الجوار. وفي باب النصح أيضاً أحال على أمثال مشهورة من مثل ضرورة النوم عن عيوب العباد، استعارة عن ضرورة التغافل عنها، (كنوم الفهد) و(نوم عبود)، وفي الوقت نفسه يرى الشاعر أن الإنسان ينبغي أن ينشغل بعيوبه، ويبصرها جيداً، عن عيوب الآخرين، فتناص مع (الهدهد) و(زرقاء اليمامة)، ويسترسل الشاعر بكثافة لافتة في الإحالة على الأمثال العربية التي تتعالق مع موضوع هذا الجزء من القصيدة الذي أراده نصحا وإرشادا، ودلالة هذه الكثافة في هذا الموضوع تأكيد أهمية منظومة القيم السامية عند العرب قديما وحديثا.

ويسترسل الشاعر في الحديث عن الشعر وأهميته وما صلح منه وما فسد، حتى يقول متناصا مع المثل: (أفلس من المذلق ومن أبي المذلق)، حيث قال (الحسيني: 115):

وَكَمْ أَدِيبٍ عَادَ كَالنُّظْفِ غِنَى وَكَانَ أَفْقَرَ مِنَ الْمُدَلِّقِ

فقد ترفع قصيدة واحدة شاعرها بعدما يكون غير معروف، وقد تحط من شأنه بعدما كان معروفاً، والمذلق رجل كان سقاءً فقيراً وعرف قومه بالفقر أيضاً، حتى اشتراك في إغارة على قافلة أرسلها بازان من اليمن إلى كسرى، فأصاب مالا كثيراً، (الحسيني: 116) وصار يضرب به المثل في الغنى من بعد فقر. وفي مواضع أخرى استشهد بقول الرسول ﷺ: "إن من الشعر لحكمة" بنص صريح، وبين أهمية الشعر في حياة العرب، وكيف كان يضع أقواما ويرفع أقواما، ومثل لذلك من قصص العرب وتناص معها، كما في قصة بني أنف الناقة، الذين رفع بيت من الشعر قدرهم بعدما كانوا يخلون بلقبهم، فصاروا يفتخرون به،

بعدما قال الحطيئة فيهم (الحطيئة، 1993: 45):

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا

فقال الشاعر (الحسيني: 121):

مِثْلُ بَنِي الْأَنْفِ وَمِثْلُ هَرَمٍ وَكَأَلَّذِي يُعْرِفُ بِالْمَحَلِّقِ

¹ - قيل هو عرقوب بن صخر، أتاه أخ له يسأله تمرا، فوعده وظل يماطله إلى أن قطف الثمر وأخلف وعده لأخيه، بعدما مناه به لمدة طويلة، فصار يضرب به المثل في إخلاف الوعد.

فأحال على قصة بني أنف الناقة وقصة هرم بن سنان^(١) والمعلق^(٢)، وغيرها في تكثيف صار سمة واضحة في القصيدة. كما أحال على قصص حط الشعر من أصحابها، كما في قوله (الحسيني: 123):

مثل الربيع وبني العجلان مع بني نمير جمرات الحدق

الربيع هو ابن زياد العبسي الذي حط من قدر عامر بن مالك وإخوته عند النعمان، فاحتقرهم، فجاء لبيد بن ربيعة لينتقم لهم، فهجا الربيع هجاء جعل النعمان يحتقره. وكثافة الإحالات دلالة على كثرة الأمثلة، ومثل ذلك قصة بني العجلان^(٣) وبني نمير^(٤). وفي تكريم الشعر أشار إلى تعليق أشهرها عند العرب على الكعبة (المعلقات).

وفي مدح الأمير سيدي محمد بن عبد الله يعمد الشاعر إلى تكثيف التناص مع سادات العرب وخلفائهم وأمرائهم، حتى يصل إلى فضله في أمور كثيرة، فيتناص مع قول الشاعر^(٥):

يا باري القوس برياً ليس يحسنه لا تظلم القوس أعط القوس باريها

وذلك في قوله (الحسيني: 124):

وأعطيت قوس الغلام من قد برى أعودها رعايةً للأليق

ودلالة المثل أن يستعين المرء على عمله بأهل العلم والمعرفة والحدق. ويكثف الشاعر مجدداً من إحالاته على الأمثال من مثل: (ترك ظبي ظله) ويضرب لمن يخرج من مكان رخاء إلى مكان شقاء. ومنه أيضاً إحالة الشاعر على أمثال تضرب بقصص لواصل بن العطاء في تركه لحرف الرءاء، ونذر عمر بن أبي ربيعة بترك الشعر، والنمر بن تولب في ترك المدح والهجاء ترفعا. وفي نهاية الأرجوزة (المنظومة على بحر الرجز) يعمد إلى وصفها بالتناص مع أمثال شائعة من مثل: (أعز من ببيض الأنوق) وهو يضرب للشيء بعيد المنال أو المستحيل، و(أعز من العنقاء) وهي طائر خيالي، و(أعز من الأبلق العقوق) لأن الأبلق صفة للفرس الذكر، والعقوق صفة للفرس الأنثى ومعناه الحمل، والذكر لا يحمل، و(رجا من القربة رشح العرق) وهو يضرب للأمر المستحيل.

١ - هو هرم بن سنان الذي اشتهر بمدح زهير له وكثرة عطائه لزهير حتى بات زهير يخجل من كثرة عطائه، فصار يدخل عليه في قوم فيسلم عليهم ويستثني هرما، ويقول: خيركم استثنيت.

٢ - المعلق رجل من بني كلاب، وكانت عنده بنات عانسات، فمدحه الأعشى فتزوجن.

٣ - من بني عامر بن صعصعة، وكان العجلان لقباً يفخرون به؛ إذ لقب به أبوهم لتعجله في إقراء الضيف، ثم انقب اللقب عليهم بعدما هاجم النجاشي.

٤ - من بني عامر بن صعصعة أيضاً، وكانوا يفخرون بكونهم بني نمير، حتى هاجم جرير بقوله: فغض الطرف إنك من نمير - فلا كعبا بلغت ولا كلابا. ينظر: الصاوي، محمد إسماعيل: شرح ديوان جرير، مطبعة الصاوي، ب، ت، ص 75.

٥ - البيت ينسب للحطيئة وينسب للأخطل، وقصته أن الحطيئة دخل على سعيد بن العاص وهو يُغذي الناس فأكل أكلاً جافياً، فلما فرغ الناس من طعامهم وخرجوا، أقام الحطيئة مكانه، فأناه الحاجب ليخرجه فامتنع، وقال الحطيئة: أترغب بهم عن مجالستي؟ إني بنفسى عنهم لأرغب، فلما سمع سعيد ذلك منه، قال: دعه. وتذاكروا الشعر والشعراء. فقال لهم: أصبتم جيد الشعر، ولو أعطيتم القوس باريها لوقعتم على ما تريدون فانتبه له سعيد فرحب به وأنانه منه وحباه. وينظر: ابن سلام، الإمام الحافظ: كتاب الأمثال، تج: عبد المجيد قطامش، دار المأمون للتراث، دمشق، ط/1، 1980، ص 204.

خاتمة

جاء هذا البحث محاولة جادة للعيش مع الأبعاد الدلالية لكثافة التراكم التناسي والإحالات في قصيدة ابن الونان الشمقمقية، وبعد أن عاين تلك الأبعاد وحللها، كانت النتائج على النحو الآتي:

- التراكم التناسي خلاصة تجربة الشاعر التي عبر عنها بطرق فنية وشعورية وأخلاقية، فأدت دوراً فنياً دلت عليه مقدار انسجامه مع بقية عناصر القصيدة، فكان ممثلاً للقيمة البلاغية والمظهر الجمالي وللخبرة التاريخية للشاعر.
- تمثلت الأبعاد الدلالية لكثافة التراكم التناسي والإحالات في جانبين، الأول: فني، تمثل في قدرة الشاعر على التناص والإحالة على فكرة أو موقف أو مثل في موقف متناسب معه. والثاني: موضوعي تمثل في قدرة الشاعر على الاستعراض الذي مثل بدوره حالة معاصرة للشاعر منسجمة مع العصر الذي عاش فيه، وقد تكون بمقاييس عصرنا الفنية مأخذاً على الشاعر، إلا أنها بمقاييس عصره غير ذلك.
- تناص الشاعر وأحال على مواقف اجتماعية ودينية وأسطورية وتاريخية وأدبية كثيرة، لا يمكن رصدها كلها في بحث كهذا - مساحته محدودة.
- توقف البحث عند التناص والإحالة على جانبين، - الأول: قصص العرب وأيامهم وأحداثهم، وتبين أن الشاعر عليم بأيام العرب، خبير بقصصهم، عارف بأحداثهم، وأبعاد كل موقف منها تمثله الشاعر وعبر عن دلالاته دون أن يخل بها.
- الثاني: الحكم والأمثال، ولأهميتها في حياة العرب وارتباطها بقصصهم فقد عمد الشاعر إلى استلهاها في قصيدته، مستعيراً أبعادها الدلالية.
- الإحالات فيها كثافة ولكن ليس فيها غموض.
- لغة الشاعر لغة عصره، وألفاظها ابنة البيئة التي وجد فيها؛ فإن وردت ألفاظ ليست شائعة في زماننا، فقد كانت ابنة تلك الحقبة الزمنية، وذلك لا يعيبها ولا يقلل من شأنها.
- نظم قصيدة في مائتين وخمسة وسبعين بيتاً على وزن واحد وروي واحد، أمر في غاية الصعوبة، ولكننا لم نشعر عند قراءة القصيدة بأن الشاعر تكلف فيها.
- ما زالت القصيدة تحتاج إلى مزيد من البحث والتحليل والدراسة.

أوصى بدراسة القصيدة من زوايا أخرى أبرزها الجانب النحوي، والجانب الصرفي، والجانب البلاغي، وفي كل هذه الجوانب ما ينبغي أن يقال.

والحمد لله أولاً وأخيراً

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن لكريم

- ابن الأثير، علي بن محمد(2009): الكامل في التاريخ، بيت الأفكار الدولية.
- أدونيس سياسة الشعر(1985): دراسات في الشعرية العربية المعاصرة، دار الآداب، بيروت ط/1.

- امرؤ القيس(1984): الديوان، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط/4.
- بازهير، نرجس(2020): نحو معجم مفردات مقامات السرقسطي، المجلة الإلكترونية الشاملة متعددة المعرفة لنشر الأبحاث العلمية والتربوية (MECSJ)، عدد/32، ص7. على الموقع:

<https://www.mecsaj.com/ar/uplode/images/pdf/18.pdf>

- البغدادي، عبد القادر بن عمر(1998): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، تح: نبيل طريفي وإميل يعقوب.

- جاد المولى بك، محمد أحمد و زملاؤه(1942): أيام العرب في الجاهلية، طبعة عيسى البابي الحلبي.

- الجنكي، أحمد بن محمد(1999): قطوف الريحان من زهر الأفنان شرح حديقة ابن الونان، نشر وتوزيع عمر بن أحمد الشنقيطي، ط/2.

- الحريري، أبو محمد القاسم(1978): مقامات الحريري، دار بيروت للطباعة والنشر.

- الحسيني، عبد الله كنون(1979): شرح الشمقمقية، دار الكتاب اللبناني ودار الكتاب المصري، بيروت-القاهرة، ط/5.

- الحطيئة(1993): ديوانه، برواية وشرح ابن السكيت، دراسة: محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/1.

- الخراشي، سليمان بن صالح(2007): المنتقى من أمثال العرب وقصصهم، در القاسم، الرياض.

- أبو دبيل، سلطان سعيد(2021): أشكال التصوير الفني في شعر مسلم بن الوليد، المجلة الإلكترونية الشاملة متعددة المعرفة لنشر الأبحاث العلمية والتربوية (MECSJ)، عدد/33. على الموقع:

<https://www.mecsaj.com/ar/uplode/images/pdf/18.pdf>

- الرازي، محمد(1981): مختار الصحاح، ط/ دار الكتاب العربي.

- ابن سلام، الإمام الحافظ(1980): كتاب الأمثال، تح: عبد المجيد قطامش، دار المأمون للتراث، دمشق، ط/1.
- سلامة، عبد الرحمن ناجي(2020): دلالات اللون في الأمثال العربية القديمة، المجلة الإلكترونية الشاملة متعددة المعرفة لنشر الأبحاث العلمية والتربوية (MECSJ)، عدد22.
- سيد، علاء الدين رمضان(1996): ظواهر فنية في لغة الشعر العربي الحديث، منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- شرتح، عصام(2018): اللغة واللذة الشعرية عند وهيب عجمي - دراسة تأسيسية في جمالية اللغة الشعرية، دار الخليج للنشر والتوزيع.
- الصاوي، محمد إسماعيل(ب.ت): شرح ديوان جرير، مطبعة الصاوي.
- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد(2006): العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت.
- عمر، أحمد مختار(2008): معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ط/1.
- الغدامي، عبد الله(2008): ثقافة الأسئلة، مقالات في النقد والنظرية، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ط/2.
- الفرزدق، همام بن غالب(1987): ديوان الفرزدق، شرحه: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/1.
- كرستيفيا، جوليا(1997): علم النص، تر: فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط/2.
- مجمع اللغة العربية (القاهرة)(2014): المعجم الوسيط، ط/ مكتبة الشروق الدولية.
- مجموعة: المعجم الجامع، جامعة النجاح الوطنية، رسائل ماجستير غير منشورة.
- ابن منظور، محمد بن مكرم(1968): لسان العرب، ط/ دار صادر، بيروت.
- الميداني، أبو الفضل أحمد(ب.ت): مجمع الأمثال، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت.

List of sources and references:

AL- Qur'an AL-Karim

-Ibn al-Atheer, Ali bin Muhammad (2009): Al-Kamil fi al-Tishrikh, House of International Ideas

-Adonis, The Politics of Poetry (1985): Studies in Contemporary Arab Poetry, Dar Al-Adab, Beirut, i / 1.

-Imru 'al-Qais (1984): Al-Diwan, translated by Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim, Dar al-Ma'arif, Cairo, ed / 4.

- Bazhair, Narges (2020): Towards a Dictionary of Vocabulary of Maqamat of Zaragoza, the comprehensive multi-knowledge electronic journal for publishing scientific and educational research (MECSJ), Issue / 32, p.7. on the site:

<https://www.mecsj.com/ar/uplode/images/pdf/18.pdf>

- Al-Baghdadi, Abd al-Qadir bin Omar (1998): The Treasury of Literature and the Core of the Door of Lisan Al-Arab, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut, under: Nabil Tarifi and Emile Yaqoub

- Jad al-Mawla Bey, Muhammad Ahmad and Colleagues (1942): Ayyam al-Arab in the Jahiliyyah, edition of Isa al-Babi al-Halabi.

- Al-Janki, Ahmad bin Muhammad (1999): Qutuf Al-Rayhan from the flower of Al-Afnan, Explanation of Ibn Al-Onan Garden, published and distributed by Omar bin Ahmed Al-Shanqeeti, ed / 2.

-Al-Hariri, Abu Muhammad Al-Qasim (1978): Maqamat Al-Hariri, Beirut House for Printing and Publishing.

-Al-Husseini, Abdullah Kanoun (1979): Sharh Al-Shamaqqiya, The Lebanese Book House and the Egyptian Book House, Beirut-Cairo, 5/5.

-Al-Hatta'a (1993): His collection, with the narration and explanation of Ibn al-Skeet, study: Muhammad Qumaiha, Dar al-Kutub al-'Ilmiyya, Beirut, ed / 1.

- Al-Kharashi, Sulaiman bin Saleh (2007): The Selection of Arab Proverbs and Their Stories, Dorr Al-Qasim, Riyadh.

-Abu Dabil, Sultan Saeed (2021): Forms of Artistic Photography in the Poetry of Muslim Ibn Al-Waleed, the comprehensive multi-knowledge electronic journal for publishing scientific and educational research (MECSJ), Issue / 33. on the site:

<https://www.mecsaj.com/ar/uplode/images/pdf/18.pdf>

Al-Razi, Muhammad (1981): Mukhtar As-Sahah, ed. / Dar Al-Kitaab Al-Arabi.

- Ibn Salam, Imam Al-Hafiz (1980): Book of Proverbs, under: Abd Al-Majid Qatamesh, Dar Al-Ma'mun Heritage, Damascus, ed / 1

-Salama, Abd al-Rahman Naji (2020): Semantics of color in ancient Arab proverbs, The Comprehensive Multidisciplinary Electronic Journal for the Publication of Scientific and Educational Research (MECSJ), Issue 22.

-Syed, Aladdin Ramadan (1996): Artistic phenomena in the language of modern Arabic poetry, Arab Writers Union Publications.

- Shartah, Essam (2018): Language and Poetic Pleasure for Waheeb Ajami - A foundational study in the aesthetics of poetic language, Gulf House for Publishing and Distribution.

-Al-Sawi, Muhammad Ismail (w.p.y): Explanation of Diwan Jarir, Al-Sawy Press.

- Ibn Abd Rabbo, Ahmad Ibn Muhammad (2006): The Unique Decade, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut.

-Omar, Ahmed Mukhtar (2008): The Dictionary of Contemporary Arabic Language, The World of Books, Cairo, ed / 1.

- Al-Ghadhami, Abdullah (2008): The Culture of Questions, Articles in Criticism and Theory, The Literary and Cultural Club, Jeddah, ed / 2.

-Al-Farazdaq, Hammam Ibn Ghaleb (1987): Al-Farazdaq Divan, explained by Ali Faour, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut, ed / 1.

- Christevia, Julia (1997): Text Science, Tr: Farid Ezzahi, Toubkal Publishing House, Morocco, 2nd Edition.
- The Academy of the Arabic Language (Cairo) (2014): Al-Waseet Lexicon, i / Al-Shorouk International Library.
- Collection: The Whole Lexicon, An-Najah National University, unpublished MA Theses.
- Ibn Manzur, Muhammad Ibn Makram (1968): Lisan al-Arab, i / Dar Sader, Beirut.
- Al-Midani, Abu Al-Fadl Ahmad (w.p.y): Complex of Proverbs, under: Muhammad Mohi Al-Din Abdel-Hamid, Dar Al-Marifa, Beirut.